اللغة العربية

في البلاد الاسلامية غير العربية[1]

— ٢ —

في بلاد الترك والهند

أسلفتُ القول في مكانة اللغة العربية في إيران قبل أن تصير الفارسية الحديثة لغة علم ، ثم بينت كيف سايرت العربية الفارسية بعد استعمالها ، في الشعر والكتابة وكيف بقيت غالبة في التأليف .

وأُبين اليوم حال اللغة العربية في بلاد الترك والهند . وليس غريباً ان يتناول الكلام بلاد الترك والهند في بحث واحد . فكلتاهما تجاور ايران ، وكلتاهما أثّرت فيها العربية مباشرة وبتوسط الفارسية ، ثم العربية أثرت في الفارسية ، وهذه أثرت في التركية ، وثلاث اللغات أثرت في الأُردية . فكان القول في بلاد الترك والهند متشابهاً متشابكا .

١ — بلاد الترك

اعني تركستان الشرقية والغربية وموطن الترك العثمانيين .

فأما تركستان الغربية فهي التي سماها جغرافيو العرب ما وراء النهر وتسمى اليوم تركستان الروسية لاستيلاء الروس عليها .

وكان نهر جيحون في العصور المختلفة يعدّ حداً بينها وبين ايران . واما تركستان الشرقية فتسمى كشغر وتسمى اليوم تركستان الصينية .

وفي الاقليمين زهاء ستة ملايين يعيشون في أكثر من مليونين من الكيلات المربعة . ونهر جيحون قد عدّ في أساطير الفرس وتاريخهم حداً بين ايران وتوران ،

(١) محاضرة ألقيت في الجامعة السورية بدعوة من المجمع العلمي العربي في ١٥ ايلول سنة ١٩٢٦

ودارت على ضفافه المعارك المتمادية بين الايرانيين والتورانيين ، المعارك الماثلة التي صورتها الشاهنامة . ولكنه لم يكن في الحق فاصلاً بين الأمتين اللتين تعيشان شماليه وجنوبيه على مرّ الزمان . فقد عاش الفرس شماليّ النهر منذ عصور بعيدة ، وعبر الترك النهر ، ولا سيما في العصور الاسلامية ، وانتشروا في ايران .

وفيما وراء النهر اليوم قرى كثيرة لغتها الفارسية ، ومعظم القرى التي لغتها التركية تعرف الفارسية .

ومن اللهجات الفارسية اللهجة الصغدية وهي لهجة الصغد في تركستان .

وقد قامت الدولة السامانية فيما وراء النهر وكانت حاضرتها بخارى فنشأت في عهدها الفارسية الحديثة وترعرعت في ظلالها فصارت لغة كتابة وعلم .

ولو كانت هذه البلاد خالصة للغة التركية ما كانت لغة الدولة السامانية ولغة شعرائها الفارسية دون التركية .

وأول شاعر فارسي كبير هو ابو جعفر الرودكي السمرقندي ، فقد ترعرع الشعر الفارسي اول ما ترعرع شمالي نهر جيحون .

وقد الف جار الله الزمخشري مقدمة الأدب ليعلّم أهل تركستان الأدب العربي فجعلها معجماً من العربية الى الفارسية . ولم يحاول تعليم اهل البلاد باللغة التركية وانما صارت التركية لغة ادبية في بعض أقطارها في عصور متأخرة .

فاذا تعرفنا حال العربية في تركستان ومكانتها في العلم والأدب ، وقسناااليها لغة البلاد الأدبية ، وجدنا أحوالاً تشابه مابيّنا في ايران، من احوال العربية والفارسية .

فحال الشعر الفارسي في تركستان كحاله في ايران ، ومسايرة العربية للفارسية في الشعر هنا كمسايرتها اياها هناك فلا نحتاج الى اعادة القول . وغلبة النثر العربي في ايران تقاس بها غلبته فيما وراء النهر ايضاً . وقد نشأ هناك من كتاب العربية ابو بكر الخوارزمي الكاتب المعروف (توفي سنة ٣٨٢) والعميد والد ابي الفضل ابن العميد ، والزمخشري (توفي سنة ٥٣٨) ورشيد الدين الوطواط العمري (توفي سنة ٥٧٣) .

واما لغة التأليف في العلم والأدب فكانت العربية الا قليلاً . وحسبنا أن نذكر اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح ، وخاله اسحق بن ابراهيم ، والفارابي والقفّال الشاشي (توفي سنة ٣٦٦) والخوارزمي سنة ٣١٥ وابا الريحان البيروني .

ولا بد من وقفة عند الزمخشري لنستدل على مكانة العربية ، بما ألّف فيها وبما بيّن من مكانتها في مقدمة كتابيه المفصّل ومقدمة الأدب . فالزمخشري قد عاش بين منتصف القرن الخامس الهجري ومنتصف القرن السادس في تلك البلاد ، وكان من أئمة العربية في اللغة والنحو والأدب ولم يؤثر عنه انه كتب بالفارسية او التركية .

وقال في مقدمة المفصل :

« ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيغاً عن سواء المنهج » .

ويظهر من تضاعيف كلام الزمخشري أن هؤلاء الذين يغضون من العربية كانت كراهيتهم في صميمها للنحو لا للغة العربية نفسها . ثم قال الزمخشري عن هؤلاء :

« وبهذا اللسان (يعنى العربية) مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر في القراطيس أقلامهم ، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم . فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا ، غير منفكين عنها أينما وجهوا ، كلٌّ عليها حيثما سيّروا . ثم انهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزّقون أديمها ، ويمضغون لحمها . فهم في ذلك على المثل السائر « الشعير يؤكل ويذمّ » ويدّعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا في شيء منها ، فان صح ذلك فما بالهم لا يطلّقون اللغة رأساً والأعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب ، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارهما وينقضوا من أصول الفقه غبارهما » الى ان يقول :

« وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ، ثم نظروا هل تركوا

للعلم جمالاً وأبهة ، وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشبّهة ، وهل انقلبوا هُزأة للساخرين وضُحكة للناظرين » .

أبان الزمخشري في هذه الكلمات عن تبرّم قوم بالعربية وبيّن أنها ، على هذا ، لغة العلم ولغة القضاء ولغة التعليم والمناظرة ولغة الأدب وان التدريس بغيرها يذهب بجمال العلم ، ويجعل الخاصة كالعامة . فلغة الخاصة العربيةُ ولغة العامة الرطانة العجمية .

وألف الزمخشري مقدمة الأدب ، وضعه على نسق كتاب الثعالبي ، فقه اللغة ، وجعله عُدّة لطالب الأدب العربي وفسر الكلمات العربية بالفارسية فتلقاه الناس بالقبول كما قال :

« لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولاً من القلوب ، وهبّ في البلاد مهب الصبا والجنوب » وقال المؤلف في فاتحة الكتاب عن اللغة العربية :

« ولجلالة هذا اللسان ، وما جعل الله له من نباهة الشان ، وأن الحاجة اليه سانحة في الملة الاسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها كان المتعاطون لاتقانه والتبحّر فيه معدودين في علماء هذه الأمة ، المذكورين في طبقات الأئمة : ومن صُنع الله لهذه الطبقة ان الملوك لم تُمطر سحائبهم ، ولا فاضت عطياتهم ومواهبهم ، على أحد فيضَها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ومترسّليهم وشعرائهم » .

ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويتعصب لصناعتهم ويحرص على تنفيق بضاعتهم .

واما الذي اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب ، وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب الأميرُ الأجل الأسفهالار بهاء الدين علاء الدولة الأمير ابو المظفر آتسز ابن خوارزمشاه » اه .

وآتسز هذا احد ملوك خوارزم تولى الملك من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٥١ ه وقد تولى رشيد الدين الوطواط العمريّ الكاتب المعروف ديوانَ الرسائل لهذا الملك

ثلاثين سنة وله رسائل عربية ذائعة تدل على متانة أسلوب العربية في ذلك العصر ·

وقد عرفت محاولات للكتابة بالتركية بلهجات مختلفة منذ القرن الخامس الهجري فنظم يوسف خاص حاجب في بلاساغون و كشغر منظومة باللهجة الأيغورية اسمها قوداتقوبيليك ·

ونظم اديب احمد رباعيات سماها « عيبة الحقائق » في القرن السادس الهجري · وفي هذا القرن نظم الصوفي الكبير احمد يسوى ديوان الحكمة ·

وكذلك نظم بعض الأدباء من بعد غارات التتار في صحراء القفجاق وغيرها ، فنظم الشاعر قطب قصة خسرو وشيرين في القرن الثامن الهجري · ونظم في هذا القرن ايضاً الخوارزمي منظومته المسماة « محبت نامه » ·

وانشئت منظومات وكتب قليلة بلهجات مختلفة و ولكنها لم تبلغ ، قبل نشوء الأدب العثماني في رعاية الدولة العثمانية ، أن تنافس العربية او الفارسية في النظم او النثر او التأليف ·

واعظم ما وعته اللغة التركية الشرقية « لغة جغتاى » منظومات علي شيرنوائي وبابرنامه وهي سيرة السلطان بابر التي كتبها بنفسه ·

فأما علي شيرنوائي فكان وزيراً او مشيراً للسلطان حسين بيقرا احد الملوك من سلالة تيمورلنك وله في العدل والبر أياد بيضاء · وله في الآداب العربية والفارسية والتركية مكانة · وقد حاول ان يذلل التركية للنظم الأدبي فنظم قصصاً خمساً من القصص المعروفة في الأدب الفارسي وتبع سنّة نظامي الشاعر في خمسته · وكتب في القياس بين التركية والفارسية كتاباً سماه « محاكمة اللغتين » بيّن فيه فضل التركية على الفارسية في بعض الخصائص ·

وكتب في اللغة العربية معجماً جمع فيه بين سبعة من معاجم العربية وسماه « سبعة أبحر » ·

ولكن هذا الشاعر القدير سلك طريقاً وعراً كان فيها فريداً لم يسبقه مثله ولم يلحقه ، وبقيت منظوماته منقطعة النظير في لغة جغتاي ·

وعلي شير توفي سنة ٩٠٦ ﻫ فتاريخه يرجع الى عصر متأخر ولكن اللغة التركية الشرقية لم تكن قد مهدت للأدب فلم تجد عليها عبقرية هذا الشاعر الكبير كثيراً.

وكتب محمد ظهير الدين بابر كتابه (بابر نامه) في العصر الذي أنشأ فيه نوائي منظوماته ؛ كتبه في لغة طبيعية خالصة لا تكلف فيها ولا زينة لكنها كانت كمنظومات علي شير ، مثلاً فريداً في لغة جغتاي .

التركية العثمانية

لم تتخذ التركية الغربية لسان أدب وعلم قبل قيام الدولة العثمانية الا في الندرة . اتخذها امراء قرمان لغة ديوان في ثورتهم القصيرة الأمد ، قبيل نهاية الدولة السلجوقية وأُثر فيها نظم لجلال الدين الرومي المتوفى سنه ٦٧٢ ولابنه سلطان ولد .

وكان سلاجقة الروم — أي سلاجقة آسيا الصغرى — يلقبون بالألقاب الفارسية ويزينون قصورهم بأبيات من الشاهنامة ، وهي منظومة الفرس التي تروي جلاد ايران وتوران وتنتصر للايرانيين على التورانيين اي الترك .

وكانت العربية والفارسية لغتي العلم والأدب في تلك الأقطار ايام السلاجقة .

ولما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع استعمال الفارسية والعربية .

وفي منشآت السلاطين — وهي الرسائل التي جمعها في القرن الحادي عشر الهجري احمد فريدون بك — نماذج من رسائل السلاطين العثمانيين باللغات الثلاث .

ثم نظم شعراء باللغة التركية وكتب فيها كتاب . وتطورت الصناعتان تطورهما . فنبغ شعراء كثيرون وكتاب قليلون محاكاة للأدب الفارسي . وصيغت اوزان الشعر وقوافيه على غرار الشعر الفارسي . وقد اسلفنا القول فيه . واتخذ شعراء الترك موضوعات الشعر الفارسي وطرائقه . واكثروا من استعمال الألفاظ الفارسية والتركيبات والألفاظ العربية . حتى ليمر قاريء الشعر التركي بأبيات فارسية ليس فيها من التركية الا حرف او فعل . وبقي تسلط الفارسية واضحاً حتى عصر عبد الحق حامد واضرابه وقد توفي عبد الحق منذ بضعة عشر عاماً .

ويمكن ان يقال في صلة الأدب التركي بالأدب العربي ما قيل من قبل في الصلات بين الأدبين العربي والفارسي . إذ كان الشعر التركي ، كما قلت ، محاكاة للشعر الفارسي في الفاظه ومعانيه وموضوعاته .

وأكثرَ الترك من تسجيل تاريخهم بلغتهم فغشيت اللغة التركية بسلسلة من كتب التاريخ قيمة . والأسلوب القديم في النثر ينوء به التكلف والزينة اللفظية .

واما التأليف في العلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غلبت عليه اللغة العربية شأنها في ايران وتركستان .

وحسبنا ان نذكر من المؤلفين صدر الدين القونوي (توفي سنة ٦٧١ هـ) والكمال بن الهمام السيوامي (توفي سنة ٨٦١) ولطف الله بن حسن التوقاتي الذي الف في موضوعات العلوم للسلطان بايزيد الثاني (توفي سنة ٩٠٠) .

واحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا وهو من اكثر المؤلفين في العلوم الشرعية واللغوية .

وعصام الدين احمد بن مصطفى المعروف باسم طاشكبري زاده وهو مؤلف الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية وله مؤلفات بالعربية تزيد على الثلاثين اجلها كتاب موضوعات العلوم المسمى مفتاح السعادة (توفي سنة ٩٦٨ هـ) ومحيي الدين القونوي المتوفى سنة ٩٥١ ومصطفى بن شعبان صاحب الحاشية على تفسير البيضاوي (توفي ٩٦٩) وحامد القونوي صاحب الفتاوى توفي سنة ٩٨٥ والانقروي صاحب الفتاوى المتوفى ٩٩٨ هـ والحاج خليفة صاحب كشف الظنون المتوفى سنة ١٠٦٧

ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف اطوار العربية والتركية في التأليف على مر العصور .

ولم يخل اديب او شاعر من معرفة العربية قليلاً او كثيراً حتى عصرنا هذا .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام